البعد اللساني العرفني لمصطلح التناص من خلال الخطاب الروائي الجزائري المعاصر
عبد الجليل مرتاض نموذجا

أ. إسماعيل زغودة
جامعة الشلف

تمهيد: يعد موضوع التناص من المواضيع التي حضت بحصة الأسد والتي اهتم بها الدارسون أيما اهتمام، وذلك منذ الأزل، إذ نرى أن النقد العربي القديم قد اهتم بالتضمين والسرقات الأدبية والاقتباس. ولا يخلو _ في اعتقادنا أي نص من النصوص الأدبية من التضمين أو الاقتباس أو السرقة الأدبية أو التناص بمفهومه المعاصر. ولنزع الغمام، وكشف بعض أسرار هذا المصطلح، ارتأينا أن نبحث في مجالاته الواسعة، من خلال طرق أبوابه النظرية، وتطبيقها على النصوص العربية. وكانت الفرصة مواتية من خلال عقد هذا المؤتمر العلمي الذي يعد مناسبة لتبادل الأفكار والمعارف، فشعرية التناص في الأدب شعره ونثره واضحة المعالم أما في النقد فهي أوضح كون أن هذا المصطلح نقدي مستمد من الفلسفة. فماهية التناص ماهية زئبقية كونه متصل بمجالات عديدة ومختلفة، ولذا فمقولة "ما ترك المتقدم للمتأخر شيئا"، تصلح لجميع المجالات العلمية، بما في ذلك علم الأدب.

مفهوم التناص: لغة: التناص لغة من الناصية التي تعني قصاص الشعر في مقدم الأسس والمناصاة: الأخذ بالنواصي. والنصي: عظم العنق، وانتصى الشيء أي اختاره[1]. ومما جاء في المعجم العربي الحديث: تناصت بلادهم؛ أي كان بعضها متصلا ببعض.[2] والتناص من النص، أي يعني ازدحام القول، وهو مصدر الفعل على وزن تفاعل؛ أي المشاركة.[3] **اصطلاحا:** يعد التناص من المفاهيم الزئبقية التي

يصعب على أي باحث أن يجد لها تعريفا جامعا مانعا، كونه لا يختص بمجال محدد من جهة، وكونه من المفاهيم التي تتصل بالعلوم الإنسانية التي من الصعوبة بمكان تحديد مفاهيم مصطلحاتها.

التناص في الدراسات العربية القديمة: التناص هو مظهر من مظاهر اللغة المصاحب لأي نص أدبي، لأن الأديب يستعمل لغة قد استعملها أدباء آخرون قبله وعليه فهو مجبر لأن يقع في اتصال دائم معهم سواء من حيث اللفظ أو من حيث المعنى وهذا ما عبر عنه الجاحظ من خلال قوله :"لا يُعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام، وفي معنىً عجيب غريب، أوفي معنى شريف كريم، إلا وكل ما جاء من الشعراء من بعده أو معه، إن هو لم يعدُ على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيَه بأسره، فإنه لا يَدعُ أن يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكا فيه"[4]. يُفهم من خلال كلام الجاحظ أن السرقة هي تلاقي نصين أو أكثر في اللفظ أو المعنى وبالتالي فهي متصلة بمفهوم التناص، غير أنهما يختلفان في التسمية. ولم يقتصر الحديث عن مفهوم التناص في الدراسات العربية القديمة على الجاحظ فحسب وإنما تعدى ذلك إلى نقاد أجلاء أمثال ابن طباطبا العلوي من خلال كتابه عيار الشعر؛ وذلك حين يرى أن الأديب قبل أن يُصدر أدبه (شعراً أو نثراً) عليه أن يديم النظر في أدب الآخرين، وأن يغترفَ من معانيهم، وينهل من مقاصدهم وشبه الذي يتأثر بغيره كالذي يغترف من واد أو نهر قد مدّته سيول جارية[5]. فالحديث عن مصطلح التناص في النقد العربي القديم قد يطول بنا إلى كتابة عدد هائل من البحوث، لأن أي ناقد عربي يعد مدرسة بأكملها، وكل واحد منهم يستعمل مصطلحاً خاصاً به فنجد مصطلح "المشترك" عند الجرجاني يؤدي نفس مفهوم التناص في النقد المعاصر، كما أن ابن رشيق القيرواني قد أفاد النقد العربي، حين تطرق إلى موضوع "السرقات الأدبية" من خلال مؤَلَّفه "العمدة"، فقد أفرد لها جزءا من كتابه وانفرد من خلاله بذكر مجموعة من المصطلحات التي تصب في باب التناص منها: الانتحال، الإغارة الغصب، الاختلاس، المرادفة، الاهتدام، الالتقاط والتلفيق والموازنة...[6]. أما العلامة ابن خلدون فقد أفاد الموضوع المطروق من خلال حديثه عن

الحفظ، الذي يُعد في رأيه ضربٌ من ضروب التناص[7] لأن الذي لا يقترض من الآخرين لا يمكنه أن يبدع فالشاعر إن لم ينظم شعراً قد تأثر بشعراء آخرين، أخذ من هذا الوزن، وأخذ من هذا القافية، وأخذ من هذا المعاني؟، فلا يعد شاعراً، وكلامه مردود غير مقبول.

التناص في الدراسات العربية المعاصرة: ولم يقتصر التناص على النقاد العرب القدامى، بل تعدى ذلك إلى العرب المعاصرين، تأثراً بالنقد الغربي من جهة ومواصلة لركب القدامى من جهة أخرى. لقد صرح الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض بأن مصطلح التناص بمعناه القديم أو الحديث، لم يتفطن إليه أحد من النقاد العرب المعاصرين، بداية بعبد السلام المسدي من خلال كتابه "الأسلوبية والأسلوب" (1975) وصولا إلى كمال أبو ديب من خلال كتابيه "جدلية الخفاء والتجلي (1979) و"في الشعرية" (1987)، ختاما بنفسه عندما تحدث عن عدم تداركه لهذا المصطلح في كتابه "النص الأدبي من أين وإلى أين" (1989)[8]. بينما يرى أنّ بعض النقاد تطرقوا لهذا المصطلح مفهوما دون تسمية، يقول عبد الملك مرتاض:"...وعلى أن كتاب "الخطيئة والتفكير" لعبد الله الغذامي الذي صدر عام 1985، وهو من أحسن الكتب الأولى التي ظهرت في الحداثة العربية لم يستعمل هو أيضا، مصطلح التناص فيه صراحة، ولكنه أوردهُ تحت مصطلح (تداخل النصوص Intertextualty)"[9]. فالمهم ليس من السبّاق لاستعمال المصطلح، وإنما المفيد في كيفية تناول هذا المصطلح وتكييف دراسته مع النصوص العربية القديمة والحديثة. ويمكننا القول بأن المصطلحات العربية القديمة السالفة الذكر، لها علاقة وطيدة بمصطلح التناص، بيد أنها تحتاج إلى بعض من المراجعة والتهذيب كمصطلح "السرقة".

التناص في الدراسات الغربية المعاصرة: فالتناص يعني العلاقة بين نصين أو أكثر، وقد حدد جيرار جينيت G. genette من خلال دراسته للتناص نمطين من النصوص:

النص المتأثر بنصوص سابقة (Hypetexte).

النص المؤثر في النصوص اللاحقة(Hypo texte).

تتعدد تعريفات التناص بشكل عام بين النقاد واللغويين، غير أنها كلها تظهر ذلك التفاعل والتعالق والالتقاء والتداخل اللفظي والمعنوي بين نص ما ونصوص أخرى سبقته استفاد منها هذا النص المراد دراسته، فالتناص هو أن يمثل النص عملية استبدال من نصوص أخرى، أو عملية التزاوج مع النصوص. وتداخل نص في فضاء نص آخر تتقاطع فيه وتتنافى ملفوظات عديدة مستمدة من نصوص أخرى[10] أو هو أن يتضمن العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى مرتبطة به وقعت في حدود تجربة سابقة سواء بواسطة أو بغير وساطة، ومن الواضح أن التناص واقع بين نص ما حادث ومجموعة من النصوص السابقة عليه، وهو في هذه الحالة يتكون من نقول متضمنة إشارات وأصداء للغات أخرى[11]. فالنص لا يملك أصلا واحدا، وإنما تتعدد أصوله وأباؤه، وعليه فهو نسق من الجذور والأصول. هناك العديد من الأسماء النقدية التي اهتمت بمصطلح التناص في شقه المفهومي أمثال رولان بارت، جيرار جنيت، ريفاتير، جوليا كريستيفا، باختين(M. Bakhttine). بيد أن هذا الأخير يعد من الدارسين الذين اهتموا بهذا المصطلح أيما اهتمام، من خلال إرساء معالمه في الثقافة الأوربية، غير أننا نجد معظم الدارسي يقرون بأن صاحبة الفضل في بلورة هذا المفهوم هي جوليا كريستيفا الدارسة الفرنسية ذات الأصول البلغارية، من خلال المقالات التي نشرتها بين عامي (1967.1966) في مجلة تالكال وكوتيك. والحقيقة أنّ هذه الأفكار المنشورة هي لمخائيل باختين اعتمدتها كريستيفا في دراستها، لكن بالغم من ذلك إلا أن جوليا كريستيفا تعد من القلائل الذين تعلق اسمهم بمصطلح التناص. والمصطلح الذي كان يطلق على التناص من قبل باختين هو الإيديولوجيم (Idèologème) المأخوذ من الإيديولوجيا أي علم الأفكار. أما عند جوليا كريستيفا فالتناص هو "الصوت المتعدد" poly honigeu. في عام 1976خصصت مجلة "بيوتيك" الفرنسية عددا اهتم بموضوع "التناصية" تحت إشراف لوران جيني، وفيه أعاد

جيني اقتراح مفهوم لمصطلح التناص، فهو في نظره عملية تحويل وتمثيل عدة نصوص يقوم بها بها نص مركزي يحتفظ بريادة المعنى[12].

أشكال التناص في أدب عبد الجليل مرتاض: يتخذ التناص أشكالا مختلفة، فقد يتصل النص الأدبي بنصوص أدبية أخرى وهو الأكثر انتشارا، ويتصل بحقول معرفية غير أدبية، كالتاريخ أوعلم النفس أو حتى علوم المادة ذات الطابع التجريبي، لأن النصوص تختلف بحسب مجالاتها وميادينها. من خلال اشتغالنا على الإبداع الأدبي الذي خلفه الكاتب والناقد الجزائري عبد الجليل مرتاض[13] ارتأينا أن نلامس قضية التناص في أدبه بدراستنا لبعض رواياته. اتخذ التناص Intertextualty في روايات عبد الجليل مرتاض عدة أشكال متمايزة أهمها:

1. **التناص الديني:** يعد التناص الديني الأكثر انتشارا بين الكتاب والشعراء المسلمين، ولا تكاد رواية أو قصيدة عربية، تخلو من التأثر بالقرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة فهذا مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية يقع في تماس مع نص الآية الكريمة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[14]. عندما أخذ اللفظ والمعنى من خلال قوله:

من يشتري الخلد، إن الله بائعه فاستبشروا وأسرعوا فالبيع محدود[15].

ومن أمثلة التناص الديني في أدب عبد الجليل مرتاض، على كثرتها، قوله في رواية عقاب السنين:"...لا عليك يا صاحبي فالزواج قسمة ونصيب واتفاق بين الوالدين،ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها"[16]، فالعبارة الأخيرة جز من آية صريحة في قوله تعالى: ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا

عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[17]. ووقع كذلك في تناص قرآني من خلال روايته "دموع وشموع" في قوله على لسان الراوي: "حسبوا أن التعددية نعمة..خدعوا مرتين، مرة بالحرية التي خالوها جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها متكئين على الأرائك"[18]، فهذا المقطع يتناسب في اللفظ والمعنى مع نص الآية الكريمة: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾[19]. ولم يقتصر التناص الديني على تأثر الكاتب بالقرآن الكريم فقط، بل تعدى ذلك إلى تأثره بالسنة النبوية الشريفة، وذلك حين يقول على لسان أحد شخوصه: "غبي ذلك الفقيه المعجَبَة نورة التي لا تقل رونقا وفتنة عن سارة برقاه وسحر تمائمه ألم يؤدّبه من هو أعلم منه من علق تميمة فلا أتم الله له"[20]. وتلتقي العبارة الأخيرة من المقطع الروائي، مع حديث النبي صلى الله عليه وسلم؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من تعلق تميمة فلا أتم الله له، أخرجه الإمام أحمد في مسند المكثرين من الصحابة، وأبو داود في كتاب الطب، باب في تعليق التمائم. وجمالية التناص الديني تكمن في إضفاء الجانب الحقيقي على العمل الأدبي الذي يعدّ فنيا أكثر من أي شيء آخر. كما أن التناص الديني يعكس العقيدة الحقيقية للكاتب والخلفيات الأيديولوجية التي يتخفى وراءها.

التناص مع الموروث الأدبي: لا يكاد نص أدبي متأخر أن يتحرر من قيود المتقدم، كما لا يمكن لأي أديب معاصر كاتبا كان أو شاعرا أن يبتعد عن الأدب القديم سواء أكان ذلك في اللفظ أو المعنى. يتجلى تأثر عبد الجليل مرتاض في رواياته بالأدب العربي القديم من خلال احتوائها على عدد من الأبيات الشعرية، أو أنصاف أبيات للاستدلال مرةً، أو لمواصلة حديث شخوصه مرات أخرى، ومن ذلك قوله: "....فصاحبه جاهلي من بني الشيصان، ألم تسمعوا قول حسان:

ولي صاحب من بني الشيصان فحينا أقول وحينا هوة."[21]

في هذا المثال استدلّ الكاتب عبد الجليل مرتاض صراحةً ببيت حسان بن ثابت الأنصاري. من المعلوم أن الرواية جنس من الأجناس الأدبية النثرية، التي قلما نجد الروائي ينهل من ألسن الشعراء تارة، ومن شعره تارة أخرى، على خلاف المقامة التي تعد من الفنون السردية التي يمزج فيها الكاتب بين النثر والشعر. كما يتجلى التقاء الكاتب عبد الجليل مرتاض مع الأدباء القدامى وخاصة الشعراء منهم من خلال قوله"... بحركة صفية وثرثرتها الصباحية مما يجعل الارتياب يداخل لبها والخوف يخالج نفسها. من أن زوجها حن بحبه إلى الحبيب الأول " [22] تلتقي الجملة الأخيرة في معناها و بعض من لفظها مع قول الشاعر:

نقل فؤادك حيث ما شئت من الهوى مـا الحب إلا للحبيب الأول

لا يتوقف تأثر الكاتب بالموروث الأدبي العربي عند حدود الشعر فقط، بل يتعدى ذلك إلى الأمثال الشعبية، ويتمظهر ذلك من خلال قوله: "... جادوا على هذه العظام "الراشية" بما بخلوا به في زكواتهم، هم هكذا وجدوا وسيلة لذيذة لوقاية نفوسهم من الشح، عصفوران بحجر واحد"[23] وقوله كذلك: "... رضعوا زهاء ربع قرن من فكر واحد، وتصور واحد وظلوا راضين بسياسة العصا الغليظة الواحدة ...أيديهم أوكت وأفواههم نفخت.."[24] وفي المثل نقول: يداك أوكتا وفوك نفخ. ومن الموروث الشعبي الذي تأثر به الأديب عبد الجليل مرتاض، وفيه انغمس وراح يستدل به قصة "علي بابا " الشعبية وذلك من خلال قوله" ... لو كان لكل راع من رعاة ما في رقبتهم من أمانات خطوط حمراء بين ما يحق لهم و ما لا يحق لكانت الخزائن عامرة بكنوز علي بابا و آلاف الهكتارات العقارية موفورة وعشرات الآلاف من الشقق غير مستولى عليها بطرق... وهي غير مأهولة".[25] من مظاهر التناص المتجلية في أدب الكاتب كذلك تأثره بالأدب اليوناني، وذلك حين أقرن بينه و بين الأدب العربي في تزاوج مبدَع، يقول في رواتبه دموع وشموع: " لن ننسى على كل حال كاهنتك ومعها كاهنات "باخوس" إذا أعفاهن إلههن من الوحي والإلهام لبعض الوقت، ومعهن "أفروديتا" حتى ترد إلى صاحبتك التي تجاوزت العقد الرابع

بريقا من الحب والجمال، ستكون " هيرا " وسيطة بيننا وبين " باخوس لا نحسب أنه يسرد طلبا كريما لـ " زيوس". يعكس هذا التلاقي بين أدب عبد الجليل مرتاض والأدب العربي القديم والحديث وحتى الأدب الغربي مدى سعة اطلاع الكاتب على أدبنا العربي والآداب الأجنبية الأخرى (الأدب اليوناني) وحتى مدى قوة توظيف المعلومات في نصه، يعكس الحنكة الأدبية التي يتصف بها الكاتب.

التناص مع التاريخ: تأثر الكاتب عبد الجليل مرتاض بتاريخ الجزائر تأثرا بليغا إذ نرى أن روايته "عقاب السنين" رواية تؤرخ لتاريخ الجزائر الحافل بالبطولات والانتصارات، ومن أمثلة ذلك تذكره لأحداث 08 ماي 1945 يقول في روايته السالفة الذكر"... فبالأمس القريب سحقت الحرب العالمية الثانية أرواحا بريئة لا تحصى من الجزائريين لم يكن لهم فيها ناقة ولا جمل. ومن بينهم – كما تعلمين – أخوك الأصغر وبعدها بقليل احتفلت فرنسا بنصرها الذي استعرضت فيه عضلاتها بإزهاق عشرات الآلاف من الأرواح المدنية الأخرى في قالمة وخراطة وسطيف لا لشيء سوى لخروجهم مسالمين يرفعون فيه شعار الحرية التي وعدهم بها مسؤولو فرنسا... " [26]

خاتمة: يعد التناص أهم المصطلحات النقدية التي شدت انتباه الدارسين الغربيين والعرب على حد السواء، ومن خلال هذه المقاربة لنصوص الأديب الجزائري عبد الجليل مرتاض، توقفنا عند هذا المصطلح بنوع من التحليل والدراسة، ومن أهم النتائج التي توصلنا إليها:

- يعد التناص من الحتميات التي لابد للأديب أن يمر عليها، لكي يصل إلى المبتغى.

- عرف التناص في أدب عبد الجليل مرتاض صوراً مختلفةً، فقد تأثر بالقرآن والسنة، كما تأثر بالأدب العربي والأدب الأجنبي، ووصلت به درجة التأثر بالأدب الشعبي، واللغة العامية، وحتى التاريخ.

يعكس هذا التأثر بالحقول المعرفية الأخرى مدى سعة اطلاع الكاتب عبد الجليل مرتاض.

الهوامش:

1 . ابن منظور: لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1(1993) ص:623.

2 . خليل الجرس: المعجم العربي الحديث، مكتبة باريس، ص: 344.

3 . ينظر: أحمد رضا، معجم سنن اللغة، منشورات سنن الحياة، بيروت لبنان،1940 ص:47.

4 . الجاحظ : الحيوان، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ج 3، ط3(1969) ص:311.

5 . ينظر: ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق : عبدالعزيز بن ناصر المانع، نشر الخانجي، القاهرة (1985)، ص:361.

6 . ينظر: ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى القاهرة، ط3(1963).

7 . ينظر :ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني (1967).

8 – ينظر: عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة للنشر والتوزيع الجزائر (2007)، ص:254.

9 –المرجع السابق، ص:254.

10 . صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العلمية، القاهرة ط4(1996) ص:229.

11 . جوليا كريستيفا: علم النص، تر: فريد الزاهي، دار تريفال، المغرب، ط1(1991) ص:14.

12 . علال سنقوقة: التخيل والسلطة في علاقة الرواية بالسلطة السياسية، رابطة كتاب الاختلاف الجزائر(2000)، ص:61.

13 – كاتب جزائري من مدينة تلمسان، أستاذ التعليم العالي بجامعة أبو بكر بلقايد تلمسان.

14 – سورة التوبة ، الآية 111 برواية حفص.

15 – مفدي زكريا: اللهب المقدس ص:

16 – عبد الجليل مرتاض: عقاب السنين، رابطة الأدب الحديث القاهرة،ط1(1990) ص:37.

17 – سورة البقرة الآية 286.

18 – عبد الجليل مرتاض: دموع وشموع، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق(2001) ص:39.

19 – سورة البينة، الآية 08.

20 – دموع وشموع، ص:43.

21 – المصدر نفسه، ص:15.

22 – عقاب السنين، مصدر سابق، ص:40.

23 – دموع وشموع، مصدر سابق، ص:43.

24 – المصدر نفسه، ص:39.

25 – المصدر السابق، ص:41.

26– عقاب السنين، مصدر سابق ، ص 21.